الفصل الثالث

بين السبيكة القرآنيّة والنبويّة والبشريّة

فاجأ القرآن الكريم العرب بقوالبه اللغويّة الجديدة وفتح أمامهم البابَ على مصراعيه للتفكير باستحداث قوالب جديدة، ولإخصاب خيالهم للبحث عن هياكل جديدةٍ للتعبير، بعد أن أحدث في نفوسهم تلك الهزّة التي زلزلت أعرافهم اللغويّة والبيانيّة والنحويّة، وفتّتت سبائكهم التعبيريّة المتوارَثة، ولكن من غير أن يعني هذا، تمكُّنَ العرب من تقليد السبائك القرآنيّة نفسها أو النسج على منوالها.

لقد كانت السبائك الجديدة قوالب لغويّةً خاصّةً بالقرآن، وبإمكان أيٍّ عربيٍّ، مهما يكن مستواه اللغويّ، أن يدرك بسهولةٍ قرآنيّةَ تلك السبائك وتميُّزها عن أيّة سبائك لغويّةٍ أخرى كما سبق أن بيّنّا.

ألا نستطيع أن نحكم حال سماعنا لهذه السبائك بأنّها عباراتٌ قرآنيّة؟ هل يمكن أن نخلط مثلاً بينها وبين عباراتٍ للحجّاج أو الجاحظ أو بديع الزمان الهمذانيّ، أو حتّى بينها وبين لغة الرسول ﷺ؟

قد نخلط مثلاً، نحن الدارسين، بين بعض الحديث الشريف وبعض أقوال الصحابة، ولا سيّما الخلفاء الراشدين، ومع تأثّر الحديث الشريف بلغة القرآن الكريم، وتضمُّن كثيرٍ من الأحاديث النبويّة لآياتٍ أو أجزاءٍ من آيات في سياقها، فإنه يصعب أن نخلط -إن حدث مطلقاً- بين الحديث الشريف والقرآن الكريم، بل إنّ من السهل على الدارس المتمكّن أن يميّز بين الحديث القُدسيّ والحديث النبويّ العاديّ، فلكلٍّ منهما أسلوبه المختلف أيضاً، دعك من احتمال الخلط بين كلام الله تعالى وأسلوب أيّ كاتبٍ بالعربيّة على مدى

أربعة عشر قرناً من تاريخ النثر العربيّ. إنّ هذا أبعد ما يكون عن الحدوث.

بين السبيكة القرآنيّة والسبيكة البشريّة:

حتّى نثبت وجود الحاجز الصلب والمرتفع بين السبيكة البشريّة والسبيكة الإلهيّة، الذي يقف حائلاً دون تداخل السبيكتين مهما أمعنّا في المحاولات، سنقترح موازياً بشريّاً للسبائك القرآنيّة الثلاث والعشرين من سورة (البقرة) التي وقفنا عندها في الفصل السابق. ولن تكون هذه الموازِيات هي وحدها الشكل البشريّ البديل المحتمل، وإنّما هي مجرّد نموذجٍ يمثّل أسلوب الكاتب، فلكلٍّ منّا نحن البشر أسلوبه المختلف، و"الأسلوب هو الرجل" تبعاً للنظريّة النقديّة السائرة.

لقد رتّبنا عباراتنا المقترحة حسب ترتيب السبائك المذكورة نفسه كي يسهل على القارئ ملاحظةُ الفروق بين الأسلوب القرآنيّ والأسلوب البشريّ في كلّ سبيكة، من غير أن نخوض هنا في تحليل كل آيةٍ لإظهار صياغتها اللغويّة الخاصّة وخصوصيّتها النحويّة المختلفة عن لغتنا البشريّة، فهذا ما سنطبّقه في القسم الثاني من البحث عندما نتحدّث عن السبائك القرآنيّة في كلّ سورةٍ من السور المدروسة فيه.

هذه هي الآن العبارات البشريّة المقترحة؛ والموازية لسبائك الصفحة الأولى من القرآن الكريم:

1 - إنّ إنذارك لهم أو عدمَه سيّان فإنّهم لن يؤمنوا على أيّة حال

2 - وسوف نعذّبُهم بشدّة

3 - يدّعي بعضُ الناسِ أنّهم آمَنوا

4 - والحقيقة أنهم لم يؤمنوا

5 - والحقيقة أنّهم يخدعون أنفسَهم من غير أن يدركوا ذلك

6 - فزاد اللهُ مرضَهم

7 - وسوف نعذّبُهم بشدّة

8 - جزاءَ كذِبِهم

9 - وإذا طُلب منهم ألّا يخرّبوا عيش الناس

10 - رَدّوا بأنّهم لا يُخرّبون بل يُصلحون

11 - ولكنّهم في الحقيقة مخرّبون

12 - من غير أن يدرِكوا ذلك

13 - وإذا طُلِب منهم أن يصدّقوا الرسولَ كالآخَرين

14 - رَدّوا بأنّ الحمقى وحدهم هم الذين صدّقوه

15 - ولكنّهم في الحقيقة هم الحمقى

16 - وهم لا يُدركون ذلك

17 - إنّهم يتظاهرون بالإيمان أمام المؤمنين

18 - ولكنّهم إذا انفردوا بأصحابهم من الكفّار

19 - أكّدوا لهم أنّهم ما زالوا معهم وأنّهم في الحقيقة يَسخَرون من المؤمنين

20 - والواقع أنّ اللهَ هو الذي يستهزئ بهم

21 - وهو سيتركهم يتمادَون في غيّهم فلا يُبصرون الحقيقة

22 - إنّهم فضّلوا الكفرَ على الإيمان

23 - ولن يُسْلِموا أبداً مهما فعلتَ من أجلهم

إنّ من المهمّ جدّاً، ونحن نراقب الفروق بين الأصل القرآنيّ والموازي البشريّ، أن نحافظ في أذهاننا على السياق الذي وردت فيه السبيكة القرآنيّة كما هو في السورة قبل إجراء أيّة مقارنة.

فمن المحتمل أن يعترض أحدنا قائلاً: وماذا في السبيكة رقم 20 "اللهُ يستهزئُ بهم" من خصوصيّة؟ أليس في لغتنا البشريّة العاديّة عباراتٌ كثيرةٌ على نمطها؟ ألا نقول مثلاً: الأشرار يستهزئون بنا، الناجح يسخر بالمخفق، الابن يقتدي بأبيه؟ أين هي تلك الخصوصيّة التي تتحدّث عنها؟

هذا الاعتراض يمكن أن يواجهنا باستمرار إذا نزعنا الآية من سياقها

العامّ. وبإمكاننا ملاحظة الفرق بين حكمنا على السبيكة المذكورة منعزلةً عن سياقها؛ وحكمنا عليها وهي في هذا السياق للتأكّد من تلك الحقيقة.

إنّها في سياقها ليست مجرّد (الله يستهزئ بهم) وإنّما جاءت ضمن سياقٍ أكسبها معاني أخرى إضافيّة، بحيث كان علينا، لإيجاد موازٍ بشريٍّ لها، أن نعيد الجزء البشريّ المفقود منها فنقول: إنّما نحن مستهزئون [بالمؤمنين. ولكنّهم لا يدركون أنّ] اللهَ [في الحقيقة هو الذي] يستهزئ بهم. فالعبارة البشريّة لا تستغني عن تلك الأجزاء المضافة إذا أريد لها أن تُفهم على نحو كاملٍ وصحيح، مع أنّ السبيكة القرآنيّة لم تكن محتاجةً، بتركيبتها الإلهيّة الخاصّة، إلى مثل هذه الإضافات التوضيحيّة، وهنا يكمن بعض أسرار خصوصيّتها.

طبيعة السبيكة القرآنيّة وتركيبتها:

إنّ التفرّد القرآنيّ في كلا السبيكة واللفظة معاً، ثمّ في علاقات الألفاظ، وعلاقات التراكيب والعبارات بعضها ببعض، يبني لغةً مميّزةً يصعب حتّى على القارئ العاديّ أن يخلط بينها وبين الأساليب البشريّة المعروفة.

ولْنَخُضِ الآن تجربةً عمليّةً تؤكّد لنا هذا الكلام النظريّ.

سنطرح أمامنا على الطاولة عشر جملٍ، واحدةٌ منها فقط جملةٌ قرآنيّة، وقد أُخِذتْ معاني الجمل التسع الأخرى من القرآن مع الحفاظ على أبنيتها القرآنيّة؛ أي على وزن السبيكة العروضيّ والنحويّ كما هو في أصلها القرآنيّ، ولكن مع تغيير كلماتها. لقد حاولنا أن نصوغها موازيةً في بنائها اللغويّ للسبائك القرآنيّة، بحيث تزداد فرص التباسها مع تلك السبائك على القارئ، بنائيّاً في بعض أجزائها، أو لفظيّاً في أجزاءٍ أخرى، فلم نجعل الفجوة بعيدةً بين كلٍّ من الجُمل البشريّة التسع والجملة القرآنيّة التي سرّبناها بينها، من ناحية، ثمّ بين الجمل التسع وبين الآيات القرآنية التسع التي ضمّنّا هذه الجملَ معانيها، من ناحيةٍ أخرى.

إنّنا، باختصار، ألبسنا السبائك أو القوالب القرآنيّة الأصليّة ألفاظاً من

عندنا، كما هو ديدن أولئك الذين يحاولون في كلّ عصرٍ ومَصرٍ أن يضعوا سُوَراً مفترَياتٍ مِن عندهم ويُدخلون فيها من المعاني ما شاءت لهم شياطينهم.

وليختبر كلٌّ منّا مهاراته اللغويّة ويحاول أن يضع يده على الجملة القرآنيّة الحقيقيّة بين الجمل العشر، وأنا واثقٌ من أنّ معظمنا سيكتشفها بسرعة، وربّما بسهولةٍ لم يكن يتوقّعها.

هل أنتم جاهزون؟ إذن لنبدأ العدّ ليعرف كلٌّ منّا كم من الثواني احتاج لاكتشاف الجملة القرآنيّة:

1 - وكُشِفَتِ الحقيقةُ أخيراً

2 - وخُلِقَ ابنُ آدمَ جباناً

3 - وجُعِلَتِ الأرضُ مُسَطّحةً

4 - وطُبِعَ المرءُ مُجادِلاً

5 - ونُصِبَتِ الجبالُ مرتفعَةً

6 - ورُفِعَتِ السماءُ عالياً

7 - وجُعِلَ يومُ السبتِ مقدَّساً

8 - ودُكَّتِ المدائنُ دكّاً

9 - وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً

10 - وقُتِلَتِ الموؤودةُ ظُلماً

هه؟ هل وضعنا أيدينا على الجملة القرآنيّة الحقيقيّة بين هذه الجمل العشر التي أُخذتْ معانيها، وكذلك معظم ألفاظها، من القرآن الكريم؟ الأسرع بيننا هو الأكثر خبرةً بلغة القرآن، حتّى إن لم يكن يستظهر من القرآن آيةً واحدة.

ولكن السؤال الصعب، والذي لن يقف له إلّا قلّةٌ قليلة بيننا، هو: كيف اهتدينا، بالبرهان العلميّ، وبعيداً عن ذواكرنا ومحفوظاتنا، إلى الجملة القرآنيّة الحقيقيّة فميّزناها عن الجمل البشريّة التسع؟

obeikan.com

طبعاً الجواب الذي سيكون جاهزاً على ألسنتنا جميعاً هو: الأمر واضح: بالسليقة والخبرة..

نعم هذا صحيح، ولكن من أين أتينا بهذه السليقة؟ وهل نستطيع أن نصفها ونجسّمها ونضع لها قواعد مادّيةً علميّةً تساعدنا على التأكّد من صحّة أحكامنا، وتُجنّبنا، وبشكلٍ علميّ، الخلطَ بين اللغة القرآنيّة واللغة البشريّة؟

قد يكون من السهل مثلاً، لو خانتنا هذه السليقة، أن نخلط بين الجمل التسع السابقة، وبين الجمل القرآنيّة الحقيقيّة التي أخذناها منها، وهذه هي الآيات، مع الحفاظ في ترتيبها على ترتيب الجمل السابقة نفسه:

1 - ﴿الآن حَصحَصَ الحقُّ﴾ [يوسف: 51]

2 - ﴿إنّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعا﴾ [المعارج: 19]

3 - ﴿وإلى الأرضِ كيف سُطِحَت﴾ [الغاشية: 20]

4 - ﴿وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلا﴾ [الكهف: 54]

5 - ﴿وإلى الجبالِ كيف نُصِبَت﴾ [الغاشية: 19]

6 - ﴿وإلى السماءِ كيفَ رُفِعَت﴾ [الغاشية: 18]

7 - ﴿إنّما جُعِل السبتُ على الذين اختَلفوا فيه﴾ [النحل: 124]

8 - ﴿كلّا إذا دُكَّتِ الأرضُ دكّاً دَكّاً﴾ [الفجر: 21]

10 - ﴿وإذا الموؤودةُ سُئلَتْ. بأيِّ ذنْبٍ قُتِلتْ﴾ [التكوير: 8-9]

أنا لم أُفوّت الآية رقم 9 سهواً، لأن الآية موجودةٌ في المجموعة الأولى وقد اختلطت بالجمل البشرية التسع، فجاءت بينها تحت الرقم نفسه:

9 - ﴿وخُلقَ الإنسانُ ضعيفاً﴾ [النساء: 28]

إنّ ما يجعلنا نميّز بين الجملة القرآنيّة والجملة البشرية، ليس هو بالضرورة الألفاظَ القرآنيّة المتفرّدة وحدها، ولا التركيبات التي قامت عليها، ولا الإيقاع البلاغيّ المتناسق الذي يلفّها، ولا الصور القرآنيّة الجديدة التي

أدهشتنا، ولا المعاني الإلهيّة الجادّة المتميّزة، بحكمتها ووقارها وأزليّتها واستعلائها عن معاني البشر وصفاتهم، ولا الخطاب السماويّ المتفرّد، القادر كلّ القدرة، والواثق كلّ الثقة، والمتمكّن والمُخبِر والآمر والناهي والمتعالي عن الروح الإنسانيّة الضعيفة، ليس كلّ هذا فحسب، فهناك، إلى جانب ذلك كلّه، السَبْكَ الذي يجمع بين كلّ هذه العناصر، فيضمّ بعضَها إلى بعض، ليخرج منها بوحداتٍ لغويّةٍ صغيرة، قد تكوّن جملةً أو أكثر من جملةٍ، بحيث إنّها لو اختلطت مع آلاف الجمل البشريّة لأعرب بناؤها عن نفسه، ونَطق بقرآنيّتها خصوصيّةُ ألفاظها وعباراتها وبلاغتها وإيقاعها:

1 - فجملتنا الأولى لا ينبغي لها أن تكون جملةً قرآنيّةً لأنّ بناءها النحويّ بناءٌ غير قرآنيٍّ مع أنّنا حاولنا تقريبه من البناء القرآنيّ. ولو استعرنا من الخليل بن أحمد موازينه العروضيّة، مع تبديل وحدته القياسيّة المشهورة (فَعَلَ) بوحدةٍ أخرى هي (عَمِلَ)، اتّقاءً لشبهة الخلط بين لغة القرآن ولغة الشعر كما سبق أن ذكرنا، لكانت تركيبة بنائها، النحويّة وليس العَروضيّة، هكذا: (وعُمِلَتِ العَميلةُ عَميلاً). حتّى لو استعرنا لها البناء القرآنيّ فسوف تفضحها ألفاظها البشريّة الثلاثة جميعاً:

إنّ اللفظ (كُشِفتْ) تَرد اشتقاقاتُه في القرآن (20) مرة، ولكن ليس هكذا بالماضي المجهول، وأقرب أشكاله القرآنيّة إلى جملتنا البشريّة هو حين أتى في صيغة المضارع المبنيّ للمجهول في قوله تعالى:

- ﴿يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ ويُدْعَونَ إلى السجودِ فلا يستطيعون﴾ [القلم: 42]

ثم حين أتى في صيغة الماضي، ولكن مبنيّاً للمعلوم، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿فلمّا رأتْه حسِبَتْه لُجّةً وكَشَفتْ عن ساقَيها﴾ [النمل: 44]

ولن نجده في القرآن أبداً في صيغة الماضي المبنيّ للمجهول كما هو في جملتنا البشريّة.

ثمّ إنّ لفظ (الحقيقة) - مع اتّساع تداوله في لغتنا البشريّة - ليس لفظاً

قرآنيّاً، مع ورود مشتقّات جذره في القرآن (287) مرّة، وأقرب الألفاظ القرآنيّة إليه اللفظ (حقيق) واللفظ (حقّ) ونجدهما معاً في قوله تعالى:

- ﴿حقيقٌ عليّ ألّا أقولَ على الله إلّا الحقّ﴾ [الأعراف: 105]

أمّا اللفظ (أخيراً) - مع سعة انتشاره في لغتنا البشريّة أيضاً - فلا وجود له في القرآن، مع ورود مشتقّات جذره فيه (248) مرّة.

2 - والجملة الثانية لا يمكن أن تكون قرآنيّةً، مع أنّنا استعرنا لها بناءً قرآنيّاً وميزانه: (وعُمِل العاملُ - أو ابنُ العاملِ - عاملاً). والسبب أنّ (ابن آدم) - هكذا بالإفراد - ليس استعمالاً قرآنيّاً، وإنما نجده في القرآن بصيغة الجمع (بني آدم)، ونجده مرةً واحدةً بغير الجمع، ولكنْ في صيغة المثنى:

- ﴿واتلُ عليهم نبأ ابنَيْ آدمَ بالحقّ إذْ قَرّبا قُرباناً﴾ [المائدة: 27]

على حين نجد أن صيغة المفرد هذه تكثر في الحديث الشريف، ولا سيّما في القدسيّ منه "يا ابن آدم..". فضلاً عن أنّ اللفظ (جباناً) لا وجود له أو لأيٍّ من اشتقاقاته في القرآن الكريم.

3 - ولا يمكن للجملة الثالثة أن تكون قرآنيّةً لأنّ المرّة الوحيدة التي ورد فيها الفعل (جُعِلَ) في القرآن، هكذا ماضياً مبنيّاً للمجهول، لم يأخذ مفعولاً ثانياً ظاهراً - مع ورود اشتقاقاته في القرآن (346) مرّة - كما يتّضح لنا في آية سورة (النحل) - الآية السابعة في قائمتنا -. ولكنّه في جملتنا البشريّة يتعدّى، كما نرى، إلى مفعولٍ ثانٍ ظاهرٍ (مسطّحةً). ويكثر مثل هذا الاستعمال في لغة الحديث الشريف "جُعلتْ لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً" ولكنّه ينعدم تماماً في القرآن الكريم.

ثمّ إنّ اللفظ (مسطّحةً) لفظٌ غير قرآنيّ، فلا وجود له أو لاشتقاقاته في القرآن، فيما عدا مرةً واحدةً ورد فيها فعلاً ماضياً مبنيّاً للمجهول (سُطِحَتْ) وذلك في آية سورة (الغاشية) التي تقابل هذه الجملة (الآية الثالثة).

4 - والجملة الرابعة لا يمكن لها أن تكون قرآنيّة. فمع وجود الفعل

(طُبع) 11 مرّةً في القرآن - هكذا مبنيّاً للمجهول، وأحياناً مبنيّاً للمعلوم - فإنّه، خلافاً لما في هذه الجملة، يتعدّى في القرآن دائماً بالأداة (على) ثمّ تكون التعدية في هذه الحالات جميعاً، ومن غير استثناء، إلى لفظ (قلوب) بالتحديد، كما في قوله تعالى:

- ﴿وطَبَعَ اللهُ على قلوبِهم فهم لا يعلمون﴾ [التوبة: 93]
- ﴿كذلكَ نطبَعُ على قلوبِ المعتدين﴾ [يونس: 74]
- ﴿ذلك بأنّهم آمنوا ثمّ كفروا فطُبِعَ على قلوبِهم فهم لا يفقهون﴾ [المنافقون: 3]

وترِد مشتقّات اللفظ (مُجادِلاً) في القرآن الكريم (29) مرةً ولكنّنا لا نجده في صيغة الصفة المشبّهة هذه أبداً، فهو إذن، مرةً أخرى، خارجٌ عن الألفاظ القرآنيّة.

5 - إنّ كُلّاً من اللفظين (نُصِبت) و(الجبال) في هذه الجملة قرآنيّ، ولكنّ اللفظ (مرتفعة) بصيغة الصفة المشبّهة هذه ليس في القرآن - مع سعة استعماله في لغتنا البشريّة - وإنّما نجده فيه على صيغة اسم المفعول (مرفوعة) كما في قوله تعالى:

- ﴿وفُرُشٍ مرفوعة﴾ [الواقعة: 34]
- ﴿في صُحُفٍ مكرّمة. مرفوعةٍ مطهّرة﴾ [عبس: 14]
- ﴿فيها سُرُرٌ مرفوعة﴾ [الغاشية: 13]

6 - لقد استعير بناء هذه الجملة من القرآن، فهي سبيكةٌ ذات ميزانٍ قرآنيّ، والألفاظ الثلاثة فيها قرآنيّةٌ أيضاً، ولكنّ اللفظ (عالياً) سيُفسد كلّ شيء. إنّه يَرِد حقّاً في القرآن، مرّة واحدة، ولكنّه في هذا الاستعمال الوحيد يأتي حاملاً معنىً قرآنيّاً خاصّاً وهو (متكبّراً) يختلف عن كلّ المعاني البشريّة المعروفة له، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿من فرعونَ إنّه كان عالياً من المسرفين﴾ [الدخان: 31]

7 - هذه السبيكة قرآنيةٌ (وعُمِلَ عَمَلُ العمَلِ عاملاً)، وكذلك ألفاظها جميعاً، ولكن ليس مائةً بالمائة. فالألفاظ (جُعِل) و(يوم) و(السبت) و(مقدَّس)

كلّها قرآنيّ، كما نتبيّن من ورود اللفظين الأول والثالث في آية سورة (النحل) المقابلة لهذه الجملة (الآية السابعة) وكذلك من ورود اللفظ الرابع في قوله تعالى:

- ﴿إذ ناداه ربُّه في الوادِ المقدَّسِ طُوى﴾ [النازعات: 16]

ولكنّ اللفظ (جُعِل) تعدّى في الجملة إلى المفعول (مقدَّساً) بنفسه، خلافاً للاستعمال القرآني حيث يتعدّى بحرف الجرّ (على) كما هو واضح.

أما التركيب (يوم السبت) فليس قرآنيّاً، مع قرآنيّة اللفظين فيه. فنحن نقول: حدث يومَ الأربعاء، وحُدِّد يومُ الخميس، واحتفلنا يومَ الجمعة، أمّا القرآن فيُسقط عادةً اللفظ (يوم) كما رأينا في آية سورة (النحل)، وكما في الآيات الآتية:

- ﴿ولقد علمتمُ الذين اعتدَوا منكم في السبت﴾ [البقرة: 65]
- ﴿وقُلنا لهم لا تَعْدُوا في السبت﴾ [النساء: 154]
- ﴿إذ يَعْدون في السبت﴾ [الأعراف: 163]

فإذا حدث أن أبقى القرآن على اللفظ (يوم) فلا بدّ أن تَسبقه فيه الأداة (مِن) كما في قوله تعالى:

- ﴿يا أيّها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاةِ مِن يومِ الجُمُعةِ فاسعَوا إلى ذكرِ الله﴾ [الجمعة: 9]

أو يتجرّد فيه من (ال) ولكن يضاف بدلاً من ذلك إلى ضمير، كما في قوله تعالى:

- ﴿إذ تأتيهِمْ حيتانُهمْ يومَ سبتِهم شُرّعاً﴾ [الأعراف: 163]

خلافاً للاستعمال النبويّ الذي يوافق غالباً استعمالاتنا لهذا الظرف، كما في الأحاديث الشريفة التالية:

- الغُسْلُ يومَ الجُمُعةِ واجبٌ على كلِّ مُحتلِم..

- إذا كان يومُ الجُمُعةِ وقفتِ الملائكةُ على بابِ المسجدِ يكتبون الأوّلَ فالأوّل. .

- "خَلَقَ اللهُ عزّ وجلّ التُربةَ يومَ السبت، وخلق منها الجبالَ يومَ الأحد، وخلقَ الشجرَ يومَ الإثنين، وخلقَ المكروهَ يومَ الثُلاثاء، وخلقَ النورَ يومَ الأربعاء، وبَثَّ فيها الدوابَّ يوم الخميس، وخلقَ آدمَ (عليه السلام) بعد العصرِ مِن يومِ الجُمعة. . " .

أمّا اللفظ (مقدّس) فلا يأتي في القرآن نكرةً قطّ، كما حدث في جملتنا؛ إذ لا بدّ من تعريفه بـ(ال)، كما في سورة (النازعات): (بالوادِ المقدّس)، ثمّ إنّه لا يأتي مفعولاً ثانياً كما حدث في جملتنا أيضاً.

8 - وهذه الجملة هي أيضاً قريبةٌ من السبائك الأخرى في المجموعة، التي صيغت قريبةً جدّاً من إحدى السبائك القرآنيّة (وعُمِلَ العملُ عملاً) وتتّفق بألفاظها الثلاثة (دُكّت) و(المدائن) و(دكّا) مع الألفاظ القرآنيّة، ولكنّ هذا غير كافٍ ليجعل منها سبيكةً قرآنية.

إنّ الفعل (دُكّت) يرِد مرّتين في القرآن، ولكنه يأتي عادةً إمّا مسبوقاً بظرف، كما في آية سورة (الفجر) المقابلة لهذه الجملة (الآية الثامنة)، وإمّا مثنّىً ومعطوفاً على فعلٍ قبله كما في الآية الأخرى:

- ﴿وحُمِلتِ الأرضُ والجبالُ فدُكّتا دكّةً واحدة﴾ [الحاقّة: 14]

أمّا اللفظ (مدائن) ففي المرّات الثلاث التي ورد فيها في القرآن جاء مسبوقاً بحرف الجرّ (في) مع تعليق الجارّ والمجرور بحالٍ متأخّرةٍ عنهما، أو، في إعرابٍ آخر، بالفعل الذي سبقهما، كقوله تعالى:

- ﴿قالوا أرجِهْ وأخاه وأرسِل في المدائنِ حاشرين﴾ [الأعراف: 111]

- ﴿فأرسل فرعونُ في المدائنِ حاشرين﴾ [الشعراء: 53]

فاللفظ (حاشرين) في كلتا الآيتين حالٌ من الفعل (أرسل)، وقد تعلّق به الجارّ والمجرور (في المدائن) أو ربّما تعلّقا بالفعل (أرسل) نفسِه، وهذا يخالف تماماً الوضع النحويّ للّفظ في جملتنا البشريّة.

10 – هذه الجملة الأخيرة هي أيضاً قرآنيّة الألفاظ كلّياً، ولكنّ المواقع النحويّة لهذه الألفاظ تختلف في جملتنا عن مواقعها في الجملة القرآنيّة.

فالفعل المؤنّث (قُتِلَتْ) المبنيّ للمجهول لا تُفتتح به الجملةُ القرآنيّة، مثلما حدث هنا، بل تُختَتم به، كما في آية سورة (التكوير) المقابلة لجملتنا هذه (الآية العاشرة) وهي الآية الوحيدة في القرآن التي ضمّت هذا الفعل.

ومن الواضح أنّ لفظ (الموؤودة) – وهو لا يتكرر مرةً أخرى في القرآن – جاء في الآية نائبَ فاعلٍ لفعلٍ محذوفٍ يفسّره الفعل الذي بعده (سُئِلَت)، شأن أيّ اسم يأتي بعد (إذا)، على حين جاء في جملتنا نائب فاعلٍ لفعلٍ سبقه، وهو (قُتِلت). وهذا يبرز الفرق بين استعمالنا البشريّ والاستعمال القرآنيّ.

أما اللفظ (ظلماً) فأمره أكثر تعقيداً من اللفظين السابقين. إنّه في المرّتين اللتين جاء فيهما مفعولاً لأجله في القرآن، كما هو في جملتنا أيضاً، جاء بعد فعلٍ مضارعٍ وليس بعد فعلٍ ماضٍ كما وقع في جملتنا، وذلك في قوله تعالى:

– ﴿إنّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظُلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ [النساء: 10]

– ﴿ومن يفعلْ ذلك عدواناً وظلماً فسوف نُصليه ناراً﴾ [النساء: 30]

وفي المرّة الوحيدة التي ورد فيها اللفظ في القرآن بعد ماضٍ، كان هذا الماضي مبنيّاً للمعلوم (جَحدوا ظلماً) وليس مبنيّاً للمجهول كما هو الحال في جملتنا، وذلك في قوله تعالى:

– ﴿وجحَدوا بها واستيقنتها أنفسُهم ظلماً وعُلوّاً﴾ [النمل: 14]

التركيبة الإيقاعيّة للسبيكة:

ماذا لو لم نستخدم ألفاظنا البشريّة مطلقاً عند محاولتنا تعديل هذه السبائك، فاكتفينا عند تبديل أيّ لفظٍ من ألفاظ الآيات باستخدام ألفاظٍ قرآنيّةٍ أيضاً، ولكنّها وردت في آياتٍ غير هذه الآيات وسياقاتٍ غير هذه السياقات؟ فهل سنخرج بأحكامٍ شبيهةٍ بالأحكام السابقة؟

وحتّى لا تتأثّر موضوعيّة أحكامنا بذاكرتنا القرآنيّة، وقد شكّلتها قراءتنا المستمرّة للكتاب الكريم وتعايشُنا معه وحِفظُنا لآياته وسوَره، لا بدّ أن نجاهد أوّلاً في إبعاد ظلّ هذه الذاكرة عن دائرة تحليلنا للتخفيف ما أمكن من قوّة نفوذها على توجيه أحكامنا.

فهل سنشعر، وقد حلّ لفظٌ آخر في الآية محلّ اللفظ الأصليّ، مع أنّ اللفظ البديل هو قرآنيٌّ أيضاً، أنّ خلخلةً ما قد طرأت على الآية؟ وهل ستنتفض الأذن المرهفة احتجاجاً، وتستشعر النفس الذوّاقة للغة السماء إحباطاً وقلقاً للتغيير غير المريح الذي طرأ على لغة الآيات، وللالتواءات الناشزة التي ظهرت في المرتسم البيانيّ لإيقاع سبائكها وتناغم ألفاظها؟

هل سنشعر بأيّ شيءٍ من هذا لو أحللنا، مثلاً، اللفظ القرآنيّ الآخَر (ظَهَر) محلّ اللفظ (حَصحَص) في الآية الأولى، فقلنا:

1 - الآن [ظهر] الحقُّ

والجواب ببساطة: نعم. إنّ موقع اللفظ الجديد أحدث خللاً في البناء الإيقاعيّ القرآنيّ لهذه السبيكة لا يقلّ بروزاً ووضوحاً عن أي خللٍ عروضيٍّ قد يصيب بيتاً من الشعر، ليس لتوالي حركاتٍ أربع في (ـنَ ظَهَرَ)[1] فقد حدث أن توالى خمسٌ منها في آيةٍ أخرى مشابهةٍ ﴿جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ﴾ [الإسراء: 81] فقد توالت الحروف المتحرّكة الخمسة (قُ وَزَهَقَ) من غير أن نشعر بأيّ خلل، بل تتوالى في آيةٍ أخرى ستُّ حركاتٍ لا أربع (قُ وَظَهَرَ أَ) ولكن من غير أن يتسبّب ذلك في أيّ تصادمٍ مع الانسياب الموسيقيّ للآية:

- ﴿حتّى جاء الحقُّ وظَهَرَ أمْرُ الله وهم كارهون﴾ [التوبة: 48]

وسوف نحسّ مثل هذا الالتواء أيضاً، وإن كان أكثر دقّةً وأصعب تحديداً، لو أحللنا اللفظ (عنيداً) محلّ اللفظ (هلوعاً) في الآية الثانية - مع تساوي اللفظين نحويّاً وعروضيّاً -:

---

(1) يندر توالي أربع حركات في الشعر، ولا تجيز قواعد عروضه أن تتوالى فيه خمس حركات.

2 - إنّ الإنسانَ خُلق [عنيداً]

مع أنّ هذا اللفظ البديل مأخوذٌ من قوله تعالى:

- ﴿كلّا إنّه كان لآياتِنا عنيداً﴾ [المدّثر: 11]

وهكذا أيضاً لو أحللنا اللفظ (ذُلِّلت) محلّ اللفظ (سُطِحت) في الآية الثالثة، فقلنا:

3 - وإلى الأرضِ كيف [ذُلِّلَتْ]

مع أنّ اللفظ البديل يرد في قوله تعالى:

- ﴿وذُلِّلتْ قُطوفُها تذليلاً﴾ [الإنسان: 14]

وكذلك لو أحللنا اللفظ (الخَلْق) محلّ اللفظ (شيءٍ) في الآية الرابعة، فقلنا:

4 - وكان الإنسانُ أكثرَ [الخَلقِ] جَدَلا

مع أنّ اللفظ يتكرّر كثيراً في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى:

- ﴿وما كُنّا عن الخَلْقِ غافلين﴾ [المؤمنون: 17]

وكذا الأمر لو أحللنا اللفظ (استقرّت) محلّ اللفظ (نُصِبَتْ) في الآية الخامسة، فقلنا:

5 - وإلى الجبالِ كيف [استقرّت]

مع أنّ اللفظ (استقرّ) قرآنيٌّ، وقد ورد في وصف الجبل أيضاً، وذلك قوله تعالى:

- ﴿ولكنِ انظُرْ إلى الجبلِ فإنِ استقرَّ مكانَه فسوف تراني﴾ [الأعراف: 143]

وهكذا لو أحللنا اللفظ (عَلَتْ) محلّ اللفظ (رُفِعتْ) في الآية السادسة، فقلنا:

6 - وإلى السماءِ كيفَ [عَلَتْ]

مع أنّ اللفظ يرد في قوله تعالى:

- ﴿إنّ فِرعَونَ عَلا في الأرض﴾ [القَصص: 4]

وكذا لو أحللنا اللفظ (عليه) محلّ اللفظ (فيه) في الآية السابعة، فقلنا:

7 - إنّما جُعِل السبتُ على الذين اختَلفوا [عليه]

مع وجود اللفظ البديل في آياتٍ كثيرة.

وكذلك لو أحللنا اللفظ (البلاد) محلّ اللفظ (الأرض) في الآية الثامنة، فقلنا:

8 - كلّا إذا دُكَّتِ [البلاد] دكّاً دكّاً

مع قرآنيّة اللفظ البديل ووجوده في أكثر من آية، كقوله تعالى:

- ﴿فلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهمْ في البلاد﴾ [غافر: 4]

وكذلك لو أحللنا اللفظ (الرجل) محلّ اللفظ (الإنسان) في الآية التاسعة، فقلنا:

9 - وخُلِقَ [الرجلُ] ضعيفاً

مع أنّ اللفظ يتكرّر مراراً في القرآن، كقوله تعالى:

- ﴿ما جَعلَ اللهُ لِرجُلٍ مِن قلبَين في جَوفِه﴾ [الأحزاب: 4]

وأخيراً، لو أحللنا اللفظَ (الصغيرة) محلّ اللفظ (الموؤودة) في الآية العاشرة، فقلنا:

10 - وإذا [الصغيرة] سُئلتْ. بأيّ ذنْبٍ قُتِلت

مع أنّنا نجد اللفظ في أكثر من آيةٍ قرآنيّةٍ، كقوله تعالى:

- ﴿ما لهذا الكتابِ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها﴾ [الكهف: 49].

لقد وعدت نفسي ووعدت القارئ بأن أتجنّب دراسة الجوانب الزئبقيّة التي تسمح هلاميّتُها بأن يختلف عليها اثنان أو أكثر، فلا أخوض بالقارئ خضمّ الموسيقا اللغويّة أو الإيقاع القرآنيّ، وهي منطقةٌ يصعب أن تجوب وديانَها وحقول ألغامها ثمّ تخرج منها بلا إصابات، مع أنّ هذا الجانب كان ينال دائماً اهتمامي ويستأثر بجزءٍ كبيرٍ من كتبي ودراساتي النقديّة، ومع ذلك فإنّني لم أجد هنا مفرّاً من أن أُدخِل القارئ معي إلى مَخبري اللغويّ وأعرض عليه هذه التجربة الإيقاعيّة السريعة، على ألّا أُلزمه أو أُلزم نفسي بإقناعه، وبالأرقام، كما فعلتُ وسأفعل في كلّ مرّة؛ إذ لا عمل للأرقام في رمالٍ متحرّكةٍ كرمال الموسيقا، وميدانٍ يعتمد أوّلاً وأخيراً على رهافة الأذن وحاسّة التذوّق الأدبيّ، وكلاهما زئبقيٌّ متحوّلٌ مطّاط.

وباللاإنتقائيّة نفسها التي التزمت بها دائماً، هأنذا أفتح القرآن في أواسطه، عشوائيّاً، لأجد نفسي أمام الصفحة 283، وسأضع إصبعي في وسط هذه الصفحة لتحطّ، عشوائيّاً أيضاً، على الآيات الثلاث التالية:

- ﴿وكلَّ إنسانٍ ألْزَمْناهُ طائرَهُ في عُنُقِه ونُخْرِجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يَلقاهُ مَنشوراً. اقرأْ كتابَكَ كَفَى بنفسِكَ اليومَ عليكَ حَسِيباً. مَنِ اهتدَى فإنّما يَهتدي لنفْسِهِ ومَنْ ضَلَّ فإنّما يَضِلُّ عليها ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخرى وما كُنّا مُعَذّبِينَ حتّى نَبعَثَ رسولا﴾ [الإسراء: 13-15].

دعونا ندخل بهذه الآيات مخبرنا اللغويّ، وليس أمامنا فيه عملٌ كبير، فلن أغيّر في كلمات الآيات شيئاً، ولا في معانيها، بل في بنائها. إنّ كلّ ما سأفعله هو إعادة ترتيب مواقع الكلمات داخل كلّ آيةٍ ووضعُها في ترتيبٍ مختلفٍ ولكن مقبول، وهذا الترتيب ليس هو بالضرورة الترتيب البشريّ المعتاد، بحكم أنّنا ملتزمون بالمحافظة على الألفاظ نفسها، بل بالمحافظة أيضاً على بعض التراكيب القرآنيّة التي تمنعنا من التمادي في هذا التغيير، ولا هو بالترتيب الإلهي، وقد غيّرنا فيه ما غيّرنا محاولين، ما أمكن، ألّا نُلحق بالمعاني أو القواعد النحويّة ضرراً كبيراً. وسنحصل في النهاية على مثل هذا النصّ:

"وألزمْنا في عنُق كلّ إنسانٍ طائره، ويَلقى يومَ القيامة كتاباً منشوراً

نُخرجُه له. كفى اليومَ بنفسِك حسيباً عليك، فاقرأ كتابك. فإنّما لنفسِه يهتدي منِ اهتدى، وإنّما يَضِلّ عليها من ضلّ، ولا وازرةَ تَزِرُ وِزْرَ أُخرى، وحتّى نَبعث رسولاً ما كنّا مُعذِّبين".

هذه ليست لغتَنا البشريّة، وإنّما هي ألفاظٌ وتراكيب قرآنيّةٌ ولكن بترتيبٍ بشريّ، مع تجنّبنا للتقديم والتأخير ما استطعنا حرصاً على حياديّة التعديل وحفاظاً على أكبر قدرٍ من الموسيقا الداخليّة. ولو أردت أن أصوغ الجملة الأخيرة مثلاً بأسلوبي العاديّ فلن تكون إلّا شيئاً من هذا القبيل: لنّ نعذّب أمّةً إلّا بعد أن نبعث إليهم برسولٍ ينذرهم ويوضّح لهم.

والآن، والنصّان: الإلهيّ والمحرَّف أمامكم، أيّ فرقٍ موسيقيٍّ تحسّونه بين النصّين؟ إنّني لا أريد أن ألقي بظلال رأيي على أحكامكم فتتأثّر به، فأصدِروها إذن قبل أن تنتقلوا إلى الفقرة التالية التي سأُدلي فيها بدلوي مثلكم، سريعاً.

أستطيع أن أميّز بوضوح الآن، بقراءةٍ سريعةٍ متّصلةٍ للنصّين، أنّ الفرق بين نصّنا المقترح والنصّ الأصليّ هو كالفرق بين أيّة قصيدةٍ وشرحها: لقد فقدنا الوزن.

طبعاً ستقولون: وهل للقرآن وزن؟ أنا شخصيّاً أقول: نعم، ولكنّه ليس الوزن العروضيّ الذي عرفناه للشعر، القرآن ليس شعراً، وهذا أمرٌ قد بتّ فيه القرآنُ نفسه، ولا ينطبق أيٌّ من أوزان الخليل الستّة عشر على الأوزان القرآنيّة، إلّا في حالاتٍ عشوائيّةٍ أحصى منها السيوطي خمس عشرة آية[2] وإنّما للقرآن أوزانه الكثيرة الخاصّة، وعددها بعدد سبائكه.

ولكنّ أغرب ما في هذه الأوزان، وهو أحد جوانب الإعجاز فيها، أنّ آذاننا، وآذان العرب الذين سمعوها أوّل مرّة، ألِفتْها واستمتعت بإيقاعها حال سماعها، مع أن معظمها لا يتكرّر في القرآن أكثر من مرّة، كما سبق أن أثبتنا.

(2) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص170.

إنّ التكرار شرطٌ أساسيٌّ لقيام الوزن والاعتراف بصلاحيّته في سوق الأوزان، بل إنّ كلّ مكرَّرٍ يتحوّل إلى وزن، ولو أردتَ أن تصنع وزناً من أيّة عبارةٍ نثريّة، أيّة عبارةٍ على الإطلاق، فما عليك إلّا أن تكرّرها عدّة مراتٍ لتجد أنّها تحوّلت في النهاية إلى إيقاعٍ أو وزنٍ يمكن أن تصوغ عليه قصيدةً أو ديواناً. هذا ما أسمّيه بالتكرار الداخليّ، أو الأصغر، وهو أحد التكرارين الأساسيّين الضروريّين لينال الوزنُ اعترافنا.

أمّا التكرار الآخر فهو التكرار الخارجيّ، أو الأكبر، وهو أن تَنظم أكثر من قصيدةٍ أو قطعةٍ على هذا الوزن الجديد بحيث تبدأ الأسماع بائتلافه والتغنّي به، وتضطرّ الأذن الوطنيّة أو القوميّة، من ثمّ، إلى الاعتراف بالوزن الذي ابتكرتَه.

لا بدّ إذن لأيّ وزنٍ جديد، إذا أردنا لآذان الناس أن تقبله وتعترف به، من أن يحقّق في النهاية التكرار الأكبر، ولكن مروراً بالتكرار الأصغر[3].

ولكنْ للسبائك القرآنيّة النثريّة شأنٌ آخر. فقد تحوّلت إلى أوزانٍ، بل إلى أوزانٍ مألوفة، وذلك بفعل النَظم الإلهيّ الفريد لكلماتها وليس بفعل التكرار، قليلاً كان أو كثيراً.

ولو سألتموني: ما السرّ في ذلك؟ كيف تتحوّل إلى أوزانٍ وهي لا تتكرّر أبداً:

لا داخليّاً: إذ لا تتكرّر (الكلمة) داخل الآية، مثلما تتكرّر التفعيلة داخل البيت، لا بنفسها ولا بما هو بوزنها، ولا يتكرّر فيها (التركيب)، لا بنفسه ولا بما هو بوزنه، إلّا أن تكون محض مصادفة،

ولا خارجيّاً: إذ لا يتكرّر معظم سبائك القرآن، كما أثبتنا، أكثر من مرّةٍ

(3) للمزيد في هذا الباب ارجع إلى الفصلين: التجديد في الشعر الخليليّ، والأنواع العروضيّة الحديثة، في كتابنا :
- ساعي، أحمد بسّام. **حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سورية**. مرجع سابق.

واحدة، ثمّ لا علاقة لهذه السبائك، كما أكّدنا، بأيٍّ من الأوزان العروضيّة المعروفة للشعر؟

إذن لكان جوابي من غير تردّد، وبتواضعٍ جمٍّ أمام عظمة هذا الإعجاز: لا أدري..

إنّ أدنى تغييرٍ في السبيكة القرآنيّة يؤدّي إلى فقدانها للوزن، وللسبائك القرآنيّة أوزانٌ بعدد هذه السبائك، وهذه الأوزان لا تقوم على الحركات والسكون، كما هو الشأن في الأوزان الشعريّة، ولا على قواعدنا البشريّة في تنسيق الحروف وتجانسها، فكم خرجت عليها هذه السبائك فلم تزدد إلّا سلاسةً وإتقاناً.

فتلك ستّ ميماتٍ تتوالى في الآية (ومن أظلمُ مِمَّن مَنَعَ مساجدَ اللهِ) - تُلفظ تجويديّاً: أظلمُ مِمْ مَمْ مَعك - بل تتوالى ثماني ميماتٍ في الآية (وعلى أُممٍ مِمَّن معك) - تُلفظ تجويديّاً: أمَمِمْ مِمْ مَمْ مَعك - فلا نشعر مع هذا التوالي بما نشعر به من ثِقلٍ وتعثّرٍ فيما لو حدث أن وقع مثله في لغتنا البشريّة.

إنّ "الوزن" أو الإيقاع القرآنيّ تشارك في تكوينه عوامل وعناصر خفيّةٌ أخرى أشعر أنّ أدواتنا النقديّة ما تزال عاجزةً عن تقديم أيّة مساعدةٍ لوضع أيدينا عليها وتحديدها. ويؤكّد هذه الحقيقة عددٌ من المفكّرين الغربيّين الذين لامسوا القرآن في دراستهم فوصفوا انعكاساته الغريبة في نفوسهم، حتّى إن لم يفقهوا معانيه، كما نجد في حديث الكاتب الأمريكي جيفري لانج عنهم:

ليس من الضروريّ أن يكون الإنسان مسلماً لكي يشعر بهذه القوّة الخارقة للقرآن؛ ذلك أنّ الكثير منهم اختار الإسلام بَعدَ، وبسببِ، مثلِ هذه الملاحظات. أيضاً، كثيرٌ من دارسي الإسلام من غير المسلمين، قرّروا ذلك. عالم اللغة العربيّة البريطاني، آرثر جيه آربري، تذكّر كيف أنّ القرآن سانده في فترةٍ عصيبةٍ من حياته. قال: إنّ استماعه إلى القرآن وهو يرتّل باللغة العربيّة كان بالنسبة له كاستماعه إلى نبضات قلبه.

وفريدريك ديني، كاتبٌ غير مسلم، تذكّر "التجربة الرائعة المقلقة" التي

يمارسها الإنسان أحياناً وهو يقرأ القرآن، عندما يبدأ القارئ في الشعور "بحضور غامض، ومخيفٍ أحياناً"، فبدلاً من قراءة القرآن، يبدأ القارئ يشعر أنّ "القرآن هو الذي يَقرأ القارئ"(4).

وربّما كان خيرَ ما يعبّر عن هذا الموقف في صفحات تراثنا عبارةُ السكّاكيّ: "اِعلم أنّ شأن الإعجاز عجيبٌ، يُدرَك ولا يمكن وصفُه، كاستقامة الوزن: تُدرَك ولا يمكن وصفُها، وكالملاحة"(5).

السبيكة القرآنيّة الجديدة أبداً:

هذا الاختلاف والتميّز في لغة القرآن لا يعني لدينا ولادة لغةٍ جديدةٍ تحلّ محلّ اللغة العربيّة، كما توهّم بعضهم. ومن المهمّ أن نؤكّد باستمرار حقيقة أنّ التجديد القرآنيّ لم يلغِ قواعد اللغة العربيّة بل طوّرها حين لم تكن عشيّة نزول القرآن أكثر من مجرّد أعراف. إنّ القرآن هو الذي حوّل أعراف العرب اللغويّة إلى قواعد فأسّس في مرحلةٍ تاليةٍ من أجل بناء علم النحو وعلم الصرف وعلم البلاغة وعلوم اللغة المختلفة.

حتّى إذا حدث ومسّ التجديد القرآنيّ قواعدَ اللغة العربيّة، ونعود فنؤكّد أنّها لم تكن قد أخذت بعدُ صفة (قواعد)، فقد كان هذا بمثابة إغناءٍ وإضافةٍ وتطويرٍ لهذه القواعد لا إلغاء لها(6).

---

(4) لانج، جيفري. **حتّى الملائكة تسأل**. ترجمة: زين نجاتي. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2002، ص195.

(5) السكّاكيّ، أبو يعقوب يوسف. **مفتاح العلوم**. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2000، ص526.

(6) يمكن الرجوع في هذا الباب إلى كتاب محمد عبد الخالق عضيمة "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" وهو يحصي في مجلّداته الأحد عشر الظواهر النحويّة والصرفيّة في القرآن، ويتّهم النحويّين بتجرّئهم على تخطئة القراءة القرآنيّة إذا لم تستجب إلى قواعدهم، بل حتّى إن استجابت لها في بعض الأحيان (عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج1، ص25 - 26). ويتابعه في ذلك أحمد مكّي الأنصاريّ في كتابه "نظريّة النحو القرآنيّ". (الأنصاريّ، أحمد مكّي. **نظريّة النحو القرآنيّ**. (د. م.): دار القبلة، 1405هـ) وهو يصرّ على وجود نحوٍ خاصٍّ =

ولو أنّنا وضعنا أيدينَا على الظواهر التجديديّة التي سنّها القرآن أو أضافها إلى القواعد والأعراف اللغويّة والنحويّة، وجُلّ همّنا في هذا العمل تحسّسُها واكتشافها لإبراز الفروق الكبيرة بين التعبير القرآنيّ وكلٍّ من التعبير النبويّ، والتعبير الشعريّ، والتعبير النثريّ العاديّ، لكان لنا بها ثروةٌ أسلوبيّةٌ تفتح أمامنا أبواباً لا حدود لها من التجديد اللغويّ الأصيل الذي ما زلنا نسعى لتحقيقه منذ قرون، وقد ضاعت منّا مثل هذه الفرصة إلى الآن في زحمة اختلاط الدعوات التجديديّة الأصيلة بالدعوات المشبوهة أو المستوردة، تلك التي لا تهدف إلّا إلى هدم العربيّة وضياع تراثها وشرذمة أبنائها.

ولكن من المهمّ أن نتنبّه إلى حقيقةٍ قد تغيب عن بالنا، في زحمة انشغالنا باكتشاف الطبيعة الجديدة للنسيج اللغويّ القرآنيّ، وهي أنّ هذا النسيج الجديد ظلّ جديداً حتّى يومنا هذا.

إنّ كلّ جديدٍ يخطّه قلمٌ أو ينطق به لسانٌ بشريٌّ اليوم، لن يلبث أن يصبح قديماً مع الغد. فالسبيكة اللغويّة التي قدّمها الشاعر الجاهليّ الأوّل كانت جديدةً حين جاء بها أوّل مرّة، ولكنّها لم تلبث أن غدت قديمةً متكرّرةً حين تناولها الشاعر اللاحق ثمّ من لحق به، وهكذا.. أمّا السبائك القرآنيّة فقد أمسك معظمُها بالزمن وتوقّف عند اللحظة التي تنزّلَ بها فلم يسمح لأحدٍ بتكراره بعد ذلك أبداً.

= بالقرآن الكريم وعلى وجوب تعديل قواعدنا النحويّة إستناداً إليه. ورغم أخْذِه على النحويّين تمسّكهم بقواعدهم دون الأخذ بعين الاعتبار قواعد القرآن الكريم، وهو محقٌّ في هذا، فإنّه يسوق أسماء عددٍ منهم ومِن غيرهم من العلماء ممّن تنبّه لوجود فجوةٍ بين القواعد النحويّة والنصّ القرآنيّ "من أمثال ابن تيميّة والفخر الرازي وأبي حيّان وأبي عمرو الداني وابن حزم والقشيري والحريري وابن المنير والدماميني وابن الجزري والسيوطي وغيرهم" (ص: 19). وكأنّ الأنصاريّ قد استشعر الخوف من ألسنة النحاة الذين اعتادوا أن يصبوّا جام غضبهم على كلّ من يخالفهم، فدافع عن نفسه، أثناء انتقاده لبعض من رفض منهم عدداً من القراءات القرآنيّة المتواترة لمخالفتها قواعدهم، فقال محاولاً أن يحتمي بمظلّة الدكتور عضيمة: "الفكرة عامّةٌ واحدةٌ متّحدةٌ بيني وبين الشيخ عضيمة، وهي عدم الارتياح إلى مواقف بعض النحاة من القراءات، وهو عالِمٌ جليلٌ من طبقة المحافظين مثلي، فلا يُتّهم في دينٍ أو خلُق، كما أنّه متخصّصٌ مثلي في الدراسات النحويّة، فلا تُوجَّه إليه تهمة التعصّب ضدّ النحو والنحويّين" (ص22).

ومع دعوتنا في هذه الدراسة إلى تضمين لغتنا ومعاجمنا للتعبيرات القرآنيّة السائرة التي سندرسها في هذا البحث تحت عنوان (جوامع الكَلِم) فإنّ ذلك لن يعدو أن يكون مجرّد (تضمينٍ) أو (تزيينٍ) للغتنا البشريّة بهذه العبارات المتفوّقة التي تظلّ، أينما وقعت، متميّزةً وواضحة الشخصيّة القرآنيّة، ولكنّها غير قابلةٍ للخلط أو الإذابة في لغتنا العاديّة.

وفيما عدا الألفاظ والمصطلحات والتركيبات الجديدة التي أتى بها القرآن ثمّ انتشرت في لغتنا، وأحياناً في لغة الحديث الشريف، انتشاراً غيّر وجْه لغتنا، تبقى لغة القرآن، بأبنيتها المتفرّدة، وبكثيرٍ من أعرافها/ قواعدها النحويّة الجديدة، مقتصرةً عليه وحده وممتنعةً على التقليد، بل تبقى منفصلةً ومتميّزةً بوضوح عن لغة النبيّ ﷺ نفسه، وهو الذي أُنزل عليه القرآن، ولكنّه بَشَرٌ في النهاية.

وإذا كان للغة الحديث الشريف، بأسلوبَيها المتميّزين والمتفاوتين أيضاً: القدسيّ والنبويّ، ما يميّزها ويرتفع بمستواها إلى درجةٍ غير عاديّةٍ من البلاغة والفصاحة والجمال، فإنّها تظلّ محتفظةً بخصائصها البشريّة المستقلّة التي تميّزها بوضوحٍ لا لَبس فيه عن الإعجاز اللغويّ الإلهيّ.

بين السبيكتين القرآنيّة والبشريّة:

إنّ الإعجاز القرآنيّ يوازي لغتَنا البشريّة العاديّة التي نتداولها في كلّ جوانب حياتنا الأدبيّة والعمليّة، ولكن من غير أن يتقاطع معها أو يختلط بها. وما سأقوم به الآن هو تجربةٌ مخبريّةٌ نُجريها على أنفسنا لإزالة العنصر الكيميائيّ الذي ينتج في العادة عن تفاعل الزمن مع الألفة ليشكّل غشاوةً تغلّف أعيننا فتمنعنا من رؤية الفروق الحقيقيّة الهائلة بين اللغة البشريّة واللغة القرآنيّة.

اقرأوا معي هذه العبارات التي صغتها بنفسي وحاكِموها واحدةً بعد أخرى إلى لغتنا العاديّة، وسجّلوا أمام كلّ عبارة ملاحظاتكم عليها، لو وُجد مثل هذه الملاحظات:

1 - ثمّ أنت هذا تأتي لتزورني

2 - الدولة أعلَمُ مَن يقفُ معها وأعلم بمن يقف ضدّها

3 - لم أُرسل لك هذه الرسالة إلّا إنّها لَتتضمّنُ نصيحةً لك

4 - ممّا أخطائك وقعَ لك ما وقع

5 - لا تفرّقْ بين أحدٍ من تلامذتك

6 - لو كان في المطبخ طبّاخون إلّا الطبّاخُ لاحترقت الطبخة

7 - سأفضّل المتفوّقين منكم على غيرهم مكافأةً كبيرة

8 - استأجرت لبيتي لَمَن يهدِم أكثر ممّا يبني

9 - مِن الناسِ يُحسنون ومنهم مَن يسيئون

10 - لا تبالغْ في أحكامك غيرَ الحقيقة

11 - لا تَلحَقْ رفاقَ السوء عمّا جاءكَ من رفاق الخير

12 - أُعجبتُ بالكتاب الكبير غيرِ الصغير

13 - وعدْتُكم لكم مكافأةٌ كبيرة وزيادةٌ في المرتّب

14 - لا يعلمُ مَن في الصفّ أو المدرسةِ أسئلةَ الامتحان إلّا الأستاذُ

15 - الجنين يسمع في بطن أمّه ويستجيبُ الأصواتَ الخارجيّة

16 - أُتركِ الكلبَ في الزريبة غير إخراجٍ

17 - أَطِعِ القانون ولا تخالف نظام السير وبالمشاةِ تفضيلاً

18 - لا تفضّلوا الأقرباء أنْ تُساووا بين الناس

19 - بدّلْ خيراً من هذه الفاكهة

20 - قد أسمعُك البارحة.

من يستطيع اليوم، ممن يمتلك السليقة اللغويّة العربيّة، ألّا يقف متشكّكاً أمام هذه العبارات فينظر إلينا نظرة احتجاج وتساؤلٍ واستغراب، وكأنّه يقول لنا: هل أنتم متأكّدون من صياغة العبارة؟[7]

(7) عرضت هذه العبارات في محاضرتين ألقيتهما على جمهورٍ عربيٍّ في لندن، ثمّ في =

لنسمع ولنقارن:

1 – إنّ قولنا: (ثمّ أنت هذا تأتي لتزورني) أسلوبٌ لم تعرفه العربيّة في الماضي أو في الحاضر، ولكنّنا مع ذلك لا نشعر بأيّة غرابة ونحن نمرّ بالآية: ﴿ثمّ أنتمْ هؤلاء تَقتلون أنفُسَكم﴾ [البقرة: 85].

2 – وهل نستطيع أن نسمع أحدهم يقول: (الدولة أعلَمُ مَن يقفُ معها وأعلم بمن يقف ضدّها) من غير أن ننبّهه قائلين: تقصد أن تقول: (الدولة أعلمُ بمن..)؟ ولكنّنا نردّد هذا الأسلوب كلّ يوم، ومن غير أن يثير في رؤوسنا أيّة مشكلة، حين نتلو قوله تعالى: ﴿إنّ ربَّكَ هو أعلَمُ مَن يَضِلُّ عن سبيلِه وهو أعلمُ بالمهتدين﴾ [الأنعام: 117].

3 – ومن يستطيع أن يكتب إلى صديقه رسالةً يقول فيها: (لم أُرسل لك هذه الرسالة إلّا إنّها لَتتضمّنُ نصيحةً لك) من غير أن يسمع من يعدّل له عبارته قائلاً: (إلّا وهي تتضمّن..) .ولكنّنا نمرّ غير آبهين أو معترضين، بل بالأحرى معجبين ومأخوذين بالتعبير القرآنيّ: ﴿وما أرسَلْنا قَبلَك مِن المُرسَلين إلّا إنّهم لَيَأكلون الطعامَ ويَمشون في الأسواق﴾ [الفرقان: 20].

4 – ومن منّا يقول لأحدهم مؤنّباً: (ممّا أخطائك وقعَ لك ما وقع) من غير أن يجد من ينصحه بتعديل عبارته لتكون: (مِن أخطائك)؟ وهو لا يَعي أنّه يقرأ في كتاب الله كلّ يوم، مأخوذاً بسحر البيان الإلهيّ: ﴿ممّا خطيئاتِهم أُغرِقوا﴾ [نوح: 25].

5 – وأيّ توجيهٍ نسمعه لتربويٍّ يقول: (لا تفرّق بين أحدٍ من تلامذتك) نجد أنفسنا مدفوعين لتصحيحه قائلين: تقصِد (بين الواحد والآخر من

= بلدٍ عربيّ، وسألت الحضور أن يخمّنوا جنسيّة كاتب هذه العبارات فكانت الأجوبة تركّز في معظمها على أنّها لا بدّ أن تكون لغة: تركمانيّ، أرمنيّ، أريتيريّ أو صوماليّ، أجنبيّ يتكلّم العربية، أو أجنبيّ تعلّم العربيّة من غير معلّم، أو ترجمة كومبيوتر من لغةٍ أخرى، ولم يتصوّر أحدٌ منهم، على كثرتهم، أنّها ليست أكثر من عباراتٍ صغتها بنفسي وبنيتها على سبائك قرآنية.

التلامذة)، وكأنّنا لم نقرأ الآية الكريمة: ﴿لا نفرّقُ بين أحدٍ مِن رُسُلِه﴾ [البقرة: 285].

6 - ومن منّا يقول: (لو كان في المطبخ طبّاخون إلّا الطبّاخُ لاحترقت الطبخة) من غير أن نصحّح له قائلين: تعني (لو كان في المطبخ أكثر من طبّاخ)؟ وكأنّنا لم نمرّ يوماً بقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلّا اللهُ لَفسَدتا﴾ [الأنبياء: 22].

7 - ومن منّا يستطيع أن يقول لأولاده: (سأفضّل المتفوّقين منكم على غيرهم مكافأةً كبيرة) من غير أن يسمع من يعلّق: تريد أن تقول: (بمكافأةٍ كبيرة)؟ وكأنّه لم يتلُ يوماً قولَه تعالى: ﴿وفضّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما﴾ [النساء: 95].

8 - ومن يجرؤ أن يقول: (استأجرت لبيتي لَمَن يهدِم أكثر ممّا يبني) من غير أن يسمع من يصحّح له قائلاً: تقصد (استأجرت مَن يهدم)؟ وكأنّنا لا نذكر قوله تعالى: ﴿يدعو لَمَن ضَرُّه أقربُ مَن نَفعِه﴾ [الحجّ: 13].

9 - وأيُّ تلميذٍ يكتب في واجبه هذه العبارة: (مِن الناسِ يُحسنون ومنهم مَن يسيئون) ثمّ لا يصحّحها له المدرّس بالخطّ الأحمر لتصبح: (مَن يحسنون)؟ مع أنّ المدرّس سبق أن قرأ عشرات المرّات الآية الكريمة: ﴿مِنَ الذين هادُوا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مَواضعِه﴾ [آل عمران: 46].

10 - وهل تستطيع أن تقول لأحدهم: (لا تبالغْ في أحكامك غيرَ الحقيقة) من غير أن تسمع من ينبّهك معترضاً: تقصد: (وتتجاوز الحقيقة)؟ مع أنّه طالما قرأ قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تَغلُوا في دينِكم غيرَ الحقّ﴾ [المائدة: 77].

11 - ولو سمعت والداً يقول لولده: (لا تَلحَق رفاقَ السوء عمّا جاءك من رفاق الخير) لالتبس عليك الأمر، وعلى الولد أيضاً، ولتطوّعتَ بتعديل الجملة قائلاً للولد: (لا تَلحقْهم مفضّلاً لهم على رفاق الخير) وأنت غافلٌ عن قراءتك في كتاب الله كلّ يوم: ﴿ولا تتّبعْ أهواءَهم عمّا جاءك من الحقّ﴾ [المائدة: 49].

12 - ولو خيّرك صاحب المكتبة بين كتابين: صغيرٍ وكبير، فاخترت الكبير وقلت: (أُعجبتُ بالكتاب الكبير غيرِ الصغير) لصحّح لك قائلاً: تقصد: (وليس الصغير) مع أنّه يقرأ في صلاته، سبع عشرة مرّةً كلّ يوم على الأقلّ، قوله تعالى: ﴿صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم﴾ [الفاتحة: 7].

13 - وأيّ مسؤولٍ يقول لموظّفيه مبشّراً: (وعدْتُكم لكم مكافأةٌ كبيرة وزيادةٌ في المرتّب) ثمّ لا يجد من ينبّهه قائلاً: تقصِد: (وعدتُكم بمكافأة)؟ وكأنّه تعالى لم يَقُل: ﴿وعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم﴾ [المائدة: 10].

14 - ولو قال قائل: (لا يعلمُ مَن في الصفّ أو المدرسةِ أسئلةَ الامتحان إلّا الأستاذُ) لسمعَ مائة معلّقٍ يقول له: (لا يعلم ممّن في الصفّ) رغم أنّهم يقرأون قوله تعالى مسحورين ببيانه وروعته: ﴿قلْ لا يعلمُ مَن في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلّا اللهُ﴾ [النمل: 65].

15 - ولو قال آخر: (الجنين يسمع في بطن أمّه ويستجيبُ الأصواتَ الخارجيّة) لوجدَ حالاً من يصحّح له قائلاً: (ويستجيب للأصوات) كأنّهم لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿ويعلمُ ما تفعلون. ويستجيبُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ويزيدُهم من فضلِه﴾ [الشورى: 25-26].

16 - ولو قيل لك - ولن يقال - : (أُترك الكلبَ في الزريبة غيرَ إخراج) لعدّلتَ بينك وبين نفسك عبارة من يخاطبك لتكون هكذا: (من غير أن تخرجه) وكأنّك لم تقرأ أبداً قوله تعالى: ﴿والذين يُتوَفَّون منكمْ ويَذَرون أزواجاً وصيّةً لأزواجِهم متاعاً إلى الحَوْلِ غيرَ إخراجٍ﴾ [البقرة: 240].

17 - وعلينا ألّا نستغرب لو قلنا ناصحين: (أَطِع القانون ولا تخالف نظام السير وبالمشاةِ تفضيلاً) فاعترض أحدهم علينا قائلاً: تقصِد: (والأفضليّة للمشاة)، وكأنّه لم يسمع بقوله تعالى: ﴿واعبدوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [النساء: 36].

18 - وهل نتوقّع لو وعظْنا قائلين: (لا تفضّلوا الأقرباء أنْ تُساووا بين

الناس) ألّا يقول أحدهم مستدركاً علينا: (بل ساووا بين الناس)؟ مع أنّه تعالى يقول: ﴿فلا تتّبعوا الهوى أنْ تَعْدِلوا﴾ [النساء: 135].

19 - ولو قلت للبائع: (بدّلْ خيراً من هذه الفاكهة) لَبادركَ مستدركاً: تريد: (بدّلْ هذه الفاكهة بخيرٍ منها؟) مع أنّه ما يفتأ يردّد في تلاوته قوله تعالى: ﴿فلا أقسِمُ بربِّ المشارقِ والمغاربِ إنّا لَقادرون. على أن نبدّلَ خيراً منهمْ وما نحن بمسبوقين﴾ [نوح: 40 - 41].

20 - ولو قلت الآن لمن كنت تحدّثه بالأمس هاتفيّاً: (قد أسمعُك البارحة) لشكّ في أنّك سمعت ما قاله لك البارحة، وله الحقّ في هذا؛ إذ جئت بعد (قد) بفعلٍ مضارعٍ لا ماضٍ، ولكنّ القرآن الكريم يردّد ذلك في آياتٍ عديدة ثمّ لا نعجب ولا نستغرب، كما في الآيات:

- ﴿قد نرى تقلُّبَ وجهِكَ في السماء﴾ [البقرة: 144]
- ﴿قد يعلمُ اللهُ الذين يتسلّلون منكم لِواذاً﴾ [النور: 63]
- ﴿قد يعلمُ اللهُ المعوِّقين منكم﴾ [الأحزاب: 18]
- ﴿لِمَ تُؤذونني وقد تعلمون أنّي رسولُ اللهِ إليكم﴾ [الصفّ: 5]

وبإمكانكم في النهاية أن تجمّعوا الآيات القرآنيّة العشرين وتضعوها بإزاء الجمل البشريّة الموازية، لتروا الفارق التركيبيّ الواضح والكبير بين البناءين اللغويّين. ولا تنسوا، وأنتم تقرأون الآيات مجتمعةً، أن تتحسّسوا وجود أيّة مفارقاتٍ أخرى في التعبير القرآنيّ من شأنها أن تجعلكم تستغربون، فيما بينكم وبين أنفسكم، من بنائها اللغويّ:

1 - ﴿ثمّ أنتم هؤلاء تقتلون أنفسَكم﴾ [البقرة: 85]

2 - ﴿إنّ ربَّكَ هو أعلَمُ مَن يَضِلُّ عن سبيلِه وهو أعلمُ بالمهتدين﴾ [الأنعام: 117]

3 - ﴿وما أرسَلْنا قَبلَك مِن المُرسَلين إلّا إنّهم لَيَأكلون الطعامَ ويَمشون في الأسواق﴾ [الفرقان: 20]

4 - ﴿ممّا خطيئاتِهم أُغرِقوا﴾ [نوح: 25]

5 - ﴿لا نفرّقُ بين أحدٍ مِن رُسُلِه﴾ [البقرة: 285]

6 - ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلّا اللهُ لَفسَدتا﴾ [الأنبياء: 22

7 - ﴿وفضّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ [النساء: 95]

8 - ﴿يدعو لَمَن ضَرُّه أقربُ مَن نَفعِه﴾ [الحجّ: 13]

9 - ﴿مِنَ الذين هادُوا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مَواضعِه﴾ [آل عمران: 46]

10 - ﴿قلْ يا أهلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دينِكم غيرَ الحقِّ﴾ [المائدة: 77]

11 - ﴿ولا تتّبعْ أهواءَهم عمّا جاءكَ من الحقِّ﴾ [المائدة: 49]

12 - ﴿صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم﴾ [الفاتحة: 7]

13 - ﴿وعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ﴾ [المائدة: 10]

14 - ﴿قلْ لا يعلمُ مَن في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلّا اللهُ﴾ [النمل: 65]

15 - ﴿ويعلمُ ما تَفعلون .ويستجيبُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ويزيدُهم من فضلِه﴾ [الشورى: 25-26]

16 - ﴿والذين يُتوَفَّون منكمْ ويَذَرون أزواجاً وصيّةً لأزواجِهم متاعاً إلى الحَوْلِ غيرَ إخراجٍ﴾ [البقرة: 240]

17 - ﴿واعبُدوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [النساء: 36]

18 - ﴿فلا تتّبعوا الهوى أنْ تَعْدِلوا﴾ [النساء: 135]

19 - ﴿فلا أقسِمُ بربِّ المشارقِ والمغاربِ إنّا لَقادرون. على أن نبدّلَ خيراً منهمْ وما نحن بمسبوقين﴾ [نوح: 40 - 41]

20 - ﴿قد نرى تقلُّبَ وجهِكَ في السماءِ﴾ [البقرة: 144]

بين (تقليد) لغة القرآن و(اقتباسها):

هذا كلّه لا يعني أنّ بإمكاننا إذن تقليدَ لغة الوحي فنُحلّ الأساليب القرآنيّة محلّ أساليبنا البشريّة، إنّه أمرٌ مستحيل، والسبب: أنّ في بناء التعبير الإلهيّ سرّاً يجعل منه تعبيراً خاصّاً بالقرآن الكريم، ولن يكون مناسباً أو

مقبولاً، بل ربّما بدا مضحكاً، إذا لم يَرِد التعبير في بنائه وسياقه التنزيليّ وألفاظه وعلاقاته اللغويّة التي ورد فيها بالأصل، وهذا سرّ العجز المستمرّ الذي يواجهه إلى اليوم كلّ من حاول أو يحاول تقليد لغة القرآن الكريم أو تزييفها.

إنّ من السهل على أحدنا، بل من الجميل، أن يضمّن كلامه آيةً أو جزءاً من آيةٍ، والتضمين، أمرٌ كثير الشيوع في لغتنا المكتوبة والمحكيّة. بل من السهل على أحدنا أن يبدّل لفظاً في آية، أو أكثر من لفظ، بلفظٍ آخر، فيقول مثلاً لشخص لا يريده أن يسافر معه: (ألم أقل لكَ إنّك لن تستطيعَ معيَ سَفَراً) مُحِلّاً اللفظ (سفراً) محلّ اللفظ (صبراً) الذي ورد في الآية 75 من سورة (الكهف).

بل إنّ لنا أن نستشهد بهذه الآية نفسها، كما هي من غير أدنى تغيير، لو شئنا أن نقول لمن أخفق بالالتزام بمبادئه وعهوده معنا: ما يفيد معنى (لقد قلنا لك منذ البداية إنّك لن تتحمّل الاستمرار معنا طويلاً)، نعم نستطيع أن نفعل كلّ هذا..

ومع ذلك فسيكون من المضحك أن نلبس مسوح الآية أو السبيكة بكاملها، فنكتفي بتبديل كلماتها دون تغيير بنائها.

تصوّروا لو أنّ مدير أحد المصانع جمع عمّاله وألقى فيهم خطاباً، وأراد أن يقول لهم في ثنايا الخطاب إنّ كلّاً منهم يتحمّل مسؤوليّة أخطائه، وفضّل، في هذا المعنى، أن يستفيد من العبارة القرآنيّة السائرة:

﴿ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾ [فاطر: 18].

ولم يشأ أن يستخدم العبارة القرآنيّة نفسها فحاول أن يُلبسها ألفاظاً من عنده من غير أن يغيّر بناءها، وهكذا اكتفى بأن أحلّ اللفظ (يحمل) ومشتقّاته محلّ اللفظ القرآنيّ (يَزِر) مقتفياً أثر الآية الكريمة، فقال لعمّاله: (ولا يَحملُ حاملةٌ حِمْلَ أخرى).

إنّه تجاوز حدود الاقتباس أو التضمين حين استعار السبيكة القرآنيّة شديدة

التميّز، فأبقى عليها كما هي، ولكنّه وضعها في سياق لغته البشريّة مكتفياً بإحلال لفظٍ آخر محلّ اللفظ القرآنيّ، له المعنى القرآنيّ نفسه والوزن نفسه، فخرج، مع ذلك، بهذا المخلوق اللغويّ المشوّه والمثير للسخرية والإشفاق اللذين أكاد أراهما بوضوح على وجوهكم وأنتم تقرأون عبارة مدير المصنع.

فأْتُوا بسورةٍ مثلِه:

وهكذا ضحك آباؤنا في الماضي، ونضحك اليوم، ساخرين ومشفقين، لتلك المحاولات الساذجة والمستمرّة لأناسٍ يريدون أن ينالوا من القرآن ومن الإسلام، فيحاولوا وضع هياكل لغويّةٍ مشوّهةٍ يدّعون أنّها سوَرٌ قرآنيّة.

ومهما حاول المزوّرون أن يُدخلوا في القرآن ما ليس منه، أو أن يصوغوا جملةً أو عبارةً، أو يضعوا ما يدّعون أنّه سورةٌ، فسوف تفضحهم خصوصيّة القرآن اللفظيّة والتركيبيّة، وسبائكه المميّزة، تماماً كما تفضح اليوم اختبارات الـ DNA في مخابر الأطبّاء من يحاول نسبة ولدٍ إلى غير أبيه، أو فعلٍ إلى غير فاعله. إنّ جسم لغة القرآن سيرفض أيّ دم لغويٍّ جديدٍ نحاول أن نحقنه فيه، والزمرة الدمويّة المخالفة ستفسد باقتحامها كلّ ما يحيط بها من أنسجة.

لنفترض أن أحدنا أراد أن يصوغ جملةً توازي هذه الآية القرآنيّة:

- ﴿إنّ الذين اشترَوا الكفرَ بالإيمانِ لن يَضرّوا اللهَ شيئاً ولهمْ عذابٌ أليم﴾ [آل عمران: 177]

فصنعَ لنا هذه العبارة:

إنّ الذين اشتروا الجحودَ بالعرفان لن يضرّوا الملكَ شيئاً ولهم قِصاصٌ كبير.

لقد أحللنا (الجحود والعرفان) هنا محلّ (الكفر والإيمان) و(قِصاصٌ كبير) محلّ (عذاب أليم) وأبقينا على بناء السبيكة القرآنيّة في جملتنا كما هو، ومع هذا فسيكتشف من يقرأها أنّنا لم نفعل إلّا أن ألبسنا الآية ألفاظاً لا تتناسب مع النسيج القرآنيّ العامّ للعبارة - مع أنّ معظم الألفاظ التي اخترناها

قرآنيٌّ أيضاً - وهو ما سبّب إرباكاً لها، ووضَعَنا أمام مفارقاتٍ لغويّةٍ أقلُّ ما يُقال فيها إنّها غير مُريحةٍ للأذن، إن لم نقل إنّها مثيرةٌ للسخرية، لأنّها تولّدت من اختلاط الألفاظ الجديدة، التي ربّما جاءتها، مع ذلك، من آياتٍ أخرى، بالنسيج اللغوي القرآنيّ المميَّز لهذه العبارة، وهي مفارقاتٌ تنطق بالتمزّق والتنافر.

وإذن فلْنَسِرْ بالتغيير شوطاً أبعد، فنجعل عبارتنا هكذا:

إنّ الذين اشتروا الجحود بالعرفان لن يضرّوا الملك بشيءٍ ولهم قِصاصٌ كبير.

لقد أضفنا إلى التغيير السابق عنصراً جديداً، فأحللنا التعبير البشريّ الذي جاء في شكل شبه جملة (بشيءٍ) محلّ التعبير الإلهيّ الذي جاء مجرّداً من الباء (شيئاً) فبعُدت الشِقّة بين عبارتنا وبين الآية القرآنيّة، ولكن ليس على نحو يكفي لإخفاء الأصل القرآنيّ ما دامت الجملة فيه معتمدةً حتّى الآن على الاستعمال الخاصّ جداً (اشترى) الذي يأتي في القرآن عادةً بمعنى (قابل) أو (بدّل)، وكذلك على التعبير الخاصّ الآخر (ولهم) الذي يأتي في القرآن عادةً بمعنى (سيصيبهم أو جزاؤهم) كما في التعبيرات القرآنيّة: (لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم - ولهم عذابٌ عظيم - ولكم في الأرض مستقَرٌّ ومتاعٌ إلى حين).

إنّ المفارقة والتمزّق اللغويّ ما يزالان واضحين في العبارة، وضوحاً كافياً لإثارة السخرية والشكّ بجدّية النصّ.

فلتناول بالتغيير إذن هذين الموقعين الأخيرين أيضاً لتقترب الآية أكثر من لغتنا البشريّة وتتخلّى عن طبيعتها القرآنيّة، فنقول:

إنّ الذين آثروا الجحود على العرفان لن يضرّوا الملك بشيءٍ وسينالهم قِصاصٌ كبير

لقد خرجنا أخيراً من ثوب السبيكة اللغويّة القرآنيّة وجرّدنا الجملة من أيّة "دماء" قرآنيّة، ولبسنا ثوبنا اللغويّ المعتاد، وإذن فلن ينظر أحدٌ إلينا أو إلى جملتنا الأخيرة شزراً بعد الآن.

صفحة سورة (البقرة) – المقابل البشريّ:

فماذا يحدث لو تخلّصنا من هذه الحالة الانتقائيّة لآياتٍ معيّنةٍ فأجرينا مثل تلك التبديلات البشريّة على صفحةٍ كاملةٍ من القرآن لنتأكّد أكثر فأكثر أنّ هذه الحقيقة ليست مقتصرةً على بضع آياتٍ فيه، وإنّما تشمل النصّ القرآنيّ بكامله.

لنقف عند الصفحة الأولى نفسها من سورة (البقرة) التي سبق أن استخرجنا سبائكها الثلاث والعشرين؟ فأيّ شكلٍ من النصوص سيكون بين أيدينا لو قمنا بعمليّة التبديل هذه؟ وإلى أي مدىً سيكون النصّ الناتج معنا مقبولاً في الأوساط الأدبيّة أو اللغويّة، أو حتّى الشعبيّة؟

ومن المهمّ أن نشير هنا إلى أنّنا أردنا بهذه المحاولات التبديليّة أيضاً أن نعِين ذاكرتنا على التجرّد من عامل الألفة الذي من شأنه أن يسيطر إلى حدٍّ كبيرٍ على نظرتنا وأحكامنا، فائتلافنا للغة القرآن الكريم يقف باستمرار حائلاً بيننا وبين استحضار الصدمة التي شعر بها العربيّ الأوّل وهو يستمع إلى القرآن أوّل مرّة، وعمليّة التبديل هذه ستساعدنا على الخروج من "حالة الألفة" هذه والانتقال إلى "لحظة الصدمة" التي فقدناها اليوم، لنتبيّن بوضوح الصورة اللغويّة الجديدة للقرآن الكريم في شكلها الأصليّ، نقيّةً من الإشعاع المُعْشي لعنصر الأُلفة، ونتأكّد من اختلافها الواسع والكامل عن لغتنا البشريّة.

هذه هي آيات الصفحة المذكورة من جديد، ببنائها اللغويّ الأصليّ من غير تغيير، أي بسبائكها النحويّة القرآنيّة كما هي، ولكن بألفاظنا البشريّة:

> إنّ الذين عصَوا لا فرق عليهم أعاقبتموهم أم لم تعاقبوهم لا يطيعون. أغلق الزمن على عقولهم وعلى فهمهم، وعلى نظرهم غطاءٌ ولهم سجنٌ طويل. ومن الأشخاص من يقول صدّقنا بالحاكم وبالمحكمة وما هم بمصدّقين. يحتالون على الحاكم والمواطنين وما يحتالون إلّا على أنفسهم وما يُحسّون. في عقولهم علّةٌ فزادهم الزمن علّةً ولهم عقوبةٌ مؤلمةٌ بما كانوا يخدعون. وإذا قيل لهم لا تهدموا

في البلاد قالوا إنّما نحن بانون. ألا إنّهم هم المهدِّمون ولكن لا يميّزون. وإذا قيل لهم أطيعوا كما أطاع الآخرون قالوا أنطيع كما أطاع الحمقى، ألا إنّهم هم الحمقى ولكن لا يفهمون. وإذا قابلوا الذين أطاعوا قالوا أطعنا وإذا انفردوا إلى زعمائهم قالوا نحن بصفّكم إنّما نحن ساخرون. نحن نسخر منهم ونسهّل لهم في انحرافهم يتخبّطون. أولئك الذين استبدلوا الشرّ بالخير فما وُفِّقوا في صفقتهم وما كانوا رابحين.

تصوّروا لو أنّ بياناً حكوميّاً صدر صباح أحد الأيام وأذيع على الناس بهذه الصيغة، فماذا تتوقّعون أن تكون ردّة فعلهم؟ لقد ألغينا معظم الألفاظ القرآنيّة من الآيات الإحدى عشرة، وأحللنا مكانها ألفاظنا العاديّة، فهل استطعنا بذلك أن نُخفي حقيقة أصلها القرآنيّ؟ ألا تنطق كلّ جملةٍ، بعد أن "زوّرنا" تسعين بالمئة من الكلمات الأصليّة، بحقيقة هذا الأصل، وبانتمائها إلى السبيكة القرآنية المستعصية على التقليد؟ ومع ذلك نجد أنفسنا في النهاية أمام الحقيقة العارية، وهي أنّنا أخفقنا في سَحب "قارب" النصّ لإدخاله بأمانٍ في المياه الإقليميّة للّغة البشريّة، ولم نتمكّن من إقناع الآخرين بتقبّله والاعتراف به، فتحوّل إلى نصٍّ مثيرٍ للنفور وباعثٍ على السخرية إلى حدّ الإشفاق.

إنّني أعترف، بعد هذه المحاولات التبديليّة المتشابكة، والمناورات التجريبيّة المكثّفة، بأنّني أشعر وكأنّما أدرك أوّل مرّةٍ معنى الكلمات القرآنيّة الثلاث، وقد طالما قرآناها ولم ندرك عظمة معناها وما ترمي إليه من تحدٍّ مثير، وذلك قوله تعالى: ﴿لا مبدّل لكلماتِه﴾ [الأنعام: 115، والكهف: 27].

السبيكة النبويّة:

ولماذا نذهب بعيداً جدّاً؟ هذا حديث رسول الله ﷺ أمامنا، فهل ينطبق على لغته ما ينطبق على لغة السماء؟ هل سنواجه معه المشكلة التي واجهناها مع الآيات؟ وهل ستبقى سبائكه ناطقةً بحقيقة أصله النبويّ لو بدّلنا ألفاظه الأصليّة بألفاظٍ من عندنا، حتّى إن حافظنا على سبائكه كما هي؟

هل سنجد أمامنا في النهاية نصّاً مثيراً للسخرية والإشفاق كما حصل معنا في التجربة السابقة؟ وكيف نتأكّد من أنّ لغة النبيّ الكريم، على عظمتها وتفوّقها وتفرّد أسلوبها، هي أيضاً، خلافاً للغة السماء، لغةٌ بشريّةٌ قابلةٌ للاختراق أو التزوير، بحيث يصعب على غير المتمرّسين بهذا العلم اكتشاف ما يمكن أن يدخلها من وضعٍ أو إضافاتٍ أو تحريف؟

ومرّةً أخرى، ودفعاً لمنزلق "الانتقائيّة" في دراستنا، وعملاً بمبدأ (الأوائل) الذي أخذنا به في دراستنا حين درسنا سبائك الصفحة الأولى من القرآن الكريم، ثمّ حين اخترنا لتطبيقاتنا العمليّة، في هذا القسم من الكتاب، إحدى أوائل السوَر التي تنزّلت من القرآن (المدّثر)، نضع أمامنا الآن على طاولة الدراسة الأحاديث الخمسة الأولى من أشهر مجموعةٍ مختارةٍ لأحاديث الرسول ﷺ، وهي (رياض الصالحين) للإمام النوويّ، محاولين وضع أصابعنا على حقيقة الفرق، الذي لا يمكن أن يَخفَى على ذي نظر، بين اللغة الإلهيّة واللغة النبويّة:

1 - عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: "إنّما الأعمالُ بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى اللهِ ورسولِه فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِه، ومن كانت هجرتُه لِدنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يَنكِحُها فهِجرتُه إلى ما هاجرَ إليه"[8].

2 - عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "يغزو جيشٌ الكعبةَ، فإذا كانوا ببيداءَ من الأرضِ يُخسَفُ بأوّلِهم وآخرِهم". قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُخسَفُ بأوّلِهم وآخرِهم وفيهم أسواقُهم ومَن ليس منهم؟! قال: "يُخسَفُ بأوّلِهم وآخرِهم، ثمّ يُبعثون على نيّاتِهم"[9].

3 - عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبيّ ﷺ: "لا هجرةَ بعدَ الفتح، ولكنْ

---

(8) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج1، ص3. وانظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج3، ص1515.

(9) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج2، ص746. وانظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج4، ص2208.

جهادٌ ونيّةٌ، وإذا استُنفِرتُم فانفِروا"[10].

4 - عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ ﷺ قال: كنّا مع النبيّ ﷺ في غَزاةٍ فقال: "إنّ بالمدينةِ لَرجالاً ما سِرتُم مَسِيراً ولا قَطعتُم وادياً إلّا كانوا معكم، حبَسَهم المرض"[11].

5 - عن أبي يزيدَ معنِ بن يزيدَ بن الأخنس ﷺ، وهو وأبوه وجَدُّه صحابيّون، قال: كان أبي يزيدُ أخرجَ دنانيرَ يتصدّقُ بها، فوضَعَها عند رجلٍ في المسجدِ، فجئتُ فأخذتُها، فأتيتُه بها، فقال: "واللهِ ما إيّاكَ أردتُ، فخاصمتُه إلى رسولِ الله ﷺ فقال: "لكَ ما نوَيتَ يا يزيدُ، ولك ما أخذْتَ يا معْن"[12].

كنت أودّ أن أسترسل مع الأحاديث النبويّة، فأستشهد بالعشرة أو العشرين أو الخمسين، لولا خشية الإطالة، ولولا اطمئناني إلى النتيجة المؤكّدة في النهاية، قلّتِ الأحاديث التي أستشهدُ بها أو كثرت، إلى أنّ سبيكة الحديث الشريف في وادٍ وسبيكة القرآن الكريم في وادٍ بعيدٍ آخر.

حاولوا الآن معي أن نُجري على هذه الأحاديث النبويّة العمليّات الاستبداليّة نفسها التي أجريناها على الآيات القرآنيّة، وسوف تكتشفون أنّ الحدود مفتوحةٌ بين لغتنا ولغة الرسول ﷺ، إذ لا عائق أمامنا للعبور بلغتنا إلى السبيكة النبويّة، أو عبورها هي إلينا. إنّ بإمكاننا أن نستعيرها كاملةً، أو أن نُلبِسها بعض ألفاظنا، إذا أردنا لعبارتنا أن تكتسب القوّة والفصاحة التي تقدّمها لنا المدرسة النبويّة فائقة التميّز، لكن المحتفظةُ بأسلوبها النبويّ الخاصّ والمختلفِ تماماً عن الأسلوب القرآنيّ، وكذلك عن أسلوبنا البشريّ، بل التي يتميّز فيها أيضاً، وبشكلٍ واضح، أسلوب الحديث النبويّ العاديّ عن أسلوب الحديث القدسيّ كما أكّدنا دائماً.

---

(10) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج3، ص1025. وانظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج3، ص1488 .

(11) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج3، ص1518 .

(12) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج2، ص517.

إنّ من السهل لأيٍّ منّا أن يبني لنفسه عبارته الخاصّة مستخدماً أرضيّة السبيكة النبويّة الواردة في الحديث الأوّل "إنّما الأعمالُ بالنيّات" فيقول مثلاً: (إنّما العبرة بالنتائج) من غير أن يخشى الخروج على أعرافنا اللغويّة البشريّة أو أن يجد نفسه في موضع سُخريّةٍ أو اعتراضٍ من أحد.

ومن السهل أن تبني جملتك البشريّة الخاصّة على أساس السبيكة النبويّة التي تلي الأولى "وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى" فتقول مثلاً: (وإنّما لكلّ متسابقٍ ما أحرز) من غير أن تستشعر حرجاً لغويّاً، أو أن تخشى تعليقاً ساخراً من أحدهم أو اعتراضاً على عبارتك بقوله: (بل نقول كذا..) كما حصل معنا في العبارات القرآنيّة.

ومن السهل أيضاً أن تبني بلغتك العاديّة جملةً على نسَق بقيّة هذا الحديث، فتقول: (فمن كانت غايته الجهاد فأجره عظيم، ومن كانت غايته مالاً يربحه أو شهرةً ينالها فأجره هو ما اختار لنفسه) من غير أن تثير السخريّة أو النفور عند من يقرأونك أو يسمعونك..

وهذا ما يمكن أن نفعله مع السبائك النبويّة الواردة في الحديث الثاني، فنقول مثلاً في عباراتٍ توازي تلك السبائك من غير أن يثير عملُنا أيّ نفور أو اعتراض:

يَخطَف لصوصٌ طفلاً، فإذا اختبأوا بكهفٍ من الكهوف يُقبَض عليهم بقضّهم وقضيضهم...

وأترك للقرّاء أن يُتابعوا بأنفسهم هذا الاختبار مع بقيّة الأحاديث ليتبيّنوا صحّة ما نقول، مع اعترافنا بصعوبة تطبيق مثل هذه التجربة على لغةٍ كاللغة النبويّة التي تقترب بعبقريّتها من درجة الإعجاز، ولكن مع الاعتراف والتأكيد مرّةً أخرى أنّ البلاغة النبويّة، على هذا الجمال والفصاحة والتميّز، تظلّ، أوّلاً وأخيراً، لغةً بشريّةً وغير معجزةٍ أو مستحيلةٍ على الاختراق والتقليد مهما بلغت درجة بيانها أو تفوّقها.

إنّ لغة الحديث الشريف، بمعنىً آخر، لغةٌ لم تحصّنها السماء، فما

دامت غير إلهيّةٍ، وما دامت تتعامل مع الحياة اليوميّة والتفصيليّة للبشر، فهي في النهاية لغةٌ بشريّةٌ قابلةٌ للاختراق اللغويّ الذي يستحيل وقوعه مع القرآن.

لقد اختُرِقت لغة الحديث النبويّ حقّاً بآلاف الأحاديث الموضوعة، ولكن من غير أن يعني هذا أنّ علماءنا عجزوا عن ملاحقة تلك الأحاديث الدخيلة المنحولة. إنّهم استطاعوا، بمناهجهم التوثيقيّة المتفوّقة التي لم يعرف تاريخ البحث والتوثيق، في الشرق أو الغرب، وفي الماضي أو الحاضر، مثيلاً لها حتى الآن، أن يميّزوا، على نحو شبه مؤكّدٍ ونهائيّ، بين الحديث الصحيح والحديث الموضوع[13].

ولو لم يكن ذلك الاختراق اللغويّ حقيقةً واقعةً يؤكّدها العلماء المسلمون وغير المسلمين على السواء لما كان لدينا الآن علمٌ مختصٌّ بالحديث الصحيح والحسن والضعيف والموضوع. ثمّ إنّ علينا أن نتذكّر أن حديثاً له، مثلاً، ثلاث روايات، لا بدّ أن تعود روايتان منها على الأقلّ إلى أصولٍ غير نبويّةٍ اقترحها أو تصوّرها الرواة، من غير أن يشكّل ذلك ثلماً أو اختلالاً في سياق اللغة النبويّة.

أمّا لغة القرآن الكريم فقد أثبتت، من كلّ ما بيّناه حتّى الآن وما سنبيّنه من بعد، أنّها محصّنةٌ في تركيبها بما هو أشبه بجدارٍ مشفّرٍ واقٍ، فهي غير قابلةٍ للاختراق أو التقليد، بحيث ينكشف أيّ تزييفٍ تتعرّض له، مهما صغر، حتّى لأقلّ الناس معرفةً بلغة القرآن، ومن غير أن يحتاج الأمر إلى عالمٍ متخصّص.

---

(13) نبّه الرسول ﷺ في أحاديث عدّة إلى احتمال وقوع هذا الاختراق، ووضع للمسلمين أكثر من قاعدةٍ لتمييز أقواله عمّا يمكن أن يضعه الناحلون والمُغْرضون، كما في الحديث النبويّ: حدّثنا أبو عامر حدّثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد بن سويد عن أبي حميد وأبي أُسيد أن النبيّ ﷺ قال: "إذا سمعتم الحديثَ عنّي تعرفُه قلوبُكم وتلينُ له أشعارُكم وأبشارُكم وترَون أنّه منكم قريب؛ فأنا أوْلاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنّي تُنكره قلوبُكم وتنفرُ منه أشعارُكم وأبشارُكم (أي يكاد يظهر نفورُكم منه على شَعر جسدِكم وبَشَرَتِكم) وترَون أنّه منكم بعيد؛ فأنا أبعَدُكم منه". الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند أحمد بن حنبل**. القاهرة: مؤسسة قرطبة، (د. ت.)، ج5، ص425.

لقد ظلّت هذه الحقيقة على الزمن حائلاً بين لغة القرآن وأيّة محاولةٍ لاختراقها، مع سهولة انكشاف هذه المحاولات، حتّى للأناس العاديّين، حال ارتكابها، وهذا فرقٌ هامٌّ وجوهريّ بين التعامل مع كلٍّ من لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف.

ومن حقّنا أن نَعجب إذن، وربّما أكثر من مجرّد تعجّب، لكلّ روايةٍ قديمةٍ تتحدّث عن خلط بعضهم بين الحديث والقرآن، كالذي يرويه البخاريّ بسنده من طريق عطاءٍ قال:

> سمعتُ ابنَ عبّاسٍ يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "لو أنّ لابنِ آدمَ مِثلَ وادٍ مالاً لأحَبَّ أنّ له إليه مثلَه، ولا يملأُ عينَ ابنِ آدمَ إلّا الترابُ، ويتوبُ اللهُ على مَن تابَ". قال ابنُ عبّاس: فلا أدري، مِن القرآنِ هو أم لا؟

لا نبالغ إذن حين نقول: إنّ وراء كلّ آيةٍ أو تركيبٍ أو عبارةٍ أو سبيكةٍ لغويّةٍ في القرآن الكريم جديداً لم يعرفه العرب قبل القرآن، كما لن يعرفوا معظمه، من بعده. لقد ظلّت السبيكة القرآنيّة الجديدة عصيّةً على التقليد حتّى الآن، منذ اللحظة الأولى التي تنزّلت فيها الآيات الكريمة على الرسول ﷺ.

وما زال التحدّي الإلهيّ للعرب بأن يأتوا بمثله بل (بسورةٍ مِن مثله) قائماً كأنّما نزل للتوّ، لم ينَل منه شيءٌ أو يقفْ له معاندٌ على توالي العبقريّات ومرور الأحقاب.